﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين إحاطة قُدرة الله، وتأبّي إبليسَ عن السُّجود لآدمَ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيات السّابقة عنادَ المشركين وتصلُّبَهم في قبول دَعوتِه بما اقترحوه مِنَ الآيات الخارقةِ للعادة، كجعل جبلِ الصَّفا ذهبًا، وتفجيرِ الأنهارِ في مكَّةَ، ونحوِ ذلك، ممّا جعلَ رسولَ اللّهِ ﷺ في مِحْنةٍ عظيمةٍ، وحُزْنٍ شديدٍ على قومه لِمعاندتِهم ومُعارضتِهم؛ بيَّنَ في هذه الآية أنَّ حالَ الأنبياءِ مع أقوامِهم كحالِك مع قومِك، وأوَّلُ الأنبياءِ آدمُ عليه السلام، لقي مِحنةً شَديدةً مِن إبليس - لعنَه اللّهُ - لِكِبْرِهِ وحَسَدِهِ.

ومنها أيضًا أنَّ اللّهَ تعالى لمّا وصفَ الكافرينَ بقولِه: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾؛ بيَّنَ ما هو السَّبَبُ لحُصولِ هذا الطُّغيانِ، وهو إبليسُ وعداوتُهُ لبني آدمَ، ممثَّلةً في آدمَ عليه السلام، فلأَجلِ هذا المَقصودِ ذكَرَ اللّهُ تعالى قصَّةَ إبليسَ وآدمَ[1].

ولمّا ذَكَرَ القرآنُ الشِّركَ والمُشْرِكين، وناقشَهم، وألزمَهُمُ الحُجَّةَ؛ أخذَ يُبَيِّنُ لهم أصلَ الدّاء، والسَّببَ الحقيقيَّ لعلَّهُم يتَّعظون، وهو أنَّ إبليسَ اللَّعينَ أخذَ على عاتقه إغواءَهم والوسوسةَ لهُم مع بيان مَوقفِه مِن آدمَ أبي البشر[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْجُدُواْ﴾: (سجد) أصلٌ مُطَّرِدٌ يدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ؛ إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذلَّ؛ فَقَد سَجَدَ، وأسجَدَ الرَّجلُ؛ إذا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 149.
(2) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 383.

طأطأَ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ؛ إذا وضَعَ جَبهتَهُ بالأرضِ[1]، وجعل ذلك عبارةً عن التَّذلُّلِ لله وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، والمَساجِدُ: السُّجودُ ومَواضِعُه مِنَ الجَسَدِ والأرضِ، والواحِدُ: مَسجِدٌ[2]، والإسجادُ: إدامةُ النَّظرِ مَعَ سُكون[3]، والمقصودُ بالسُّجود في الآية: هيئةٌ خاصَّةٌ لإلقاءِ المَرءِ نَفسَهُ على الأرضِ، يُقصَدُ منها الإفراطُ في التَّعظيمِ، وأمّا سُجودُ المَلائكةِ؛ فهو تَمثيلٌ لحالَةٍ فيهم، تَدُلُّ على تعظيمٍ[4].

2) ﴿إِبْلِيسَ﴾: (بلس) أصلٌ يدلّ على اليأس، يُقالُ: أبلَسَ؛ إذا يَئِسَ[5]، والإبلاسُ: الحُزنُ المُعترِضُ من شِدَّةِ اليأسِ[6]، وأبلَسَ الرَّجلُ: قُطِعَ بِهِ، وأبلَسَ: سَكَتَ، وأبلَسَ من رَحمَةِ اللّه، أي: يَئِسَ ونَدِمَ، وإبليس - لَعَنَهُ اللّه - مُشتَقٌّ مِنهُ؛ لأنَّه أُبلِسَ من رحمَةِ اللّه، كأنَّهُ يَئِسَ من رَحمَتِه تعالى[7]، وإبليسُ اسمُ الشَّيطانِ الأوَّلِ الَّذي هو مولِّدُ الشَّياطينِ، فكانَ إبليسُ لنَوعِ الشَّياطينِ والجنِّ بمَنزِلَةِ آدمَ لِنوعِ الإنسانِ[8].

3) ﴿طِينًا﴾: أصلُ (طين): كلمةٌ واحدةٌ، وهيَ الطِّينُ، وهو مَعروفٌ[9]: التُّرابُ والماءُ المُختَلِط، وقد يُسَمَّى بذلكَ، وإنْ زالَ عنه قوَّةُ الماءِ، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ [الصّافّات: 11]، يُقالُ: طِنْتُ كذا، وطَيَّنْتُهُ[10]، وطينةُ الرَّجُلِ: خِلقَتُه وأَصلُه، وإنَّه ليابِسُ الطِّينةِ؛ إذا لَم يَكُنْ وطيئًا سَهلًا[11]، والمُرادُ بالطِّينِ في الآية: التُّرابُ المَخلوطُ بالماءِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ينبِّهُ ﷻ عبادَه على شِدَّة عداوةِ الشَّيطانِ وحِرصِه على إضلالِهم، فيقول في هذه الآية: واذكُرْ - أيُّها الرَّسول ﷺ - حين قُلْنا للملائكةِ: (اسجُدوا لآدَمَ سجودَ تحيَّةٍ وتكريمٍ، لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن سِيده، المُحكم: (سجد).
(3) ابن سِيده، المُحكم: (سجد).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 422، 9/ 52.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلس).
(6) الرّاغب، المفردات: (بلس).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (بلس).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 424.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طين).
(10) الرّاغب، المفردات: (طين).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طين).

سجودَ عبادةٍ)، فامتثلَ الملائكةُ كُلُّهم، وسجدوا له إلّا إبليسَ، عصَى أمرَ اللّهِ، فلم يَسجُدْ حَسَدًا له وكِبرًا، مع رُؤيتِه لآياتِ اللّهِ وعَظَمتِه وقُدرتِه، فلم يَنفَعْه ما عَلِمَه، ورآه، وقال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه باستِنكارٍ: (أتأمُرُني أن أسجُدَ لِمَن خلقتَهُ مِن طينٍ، مع أنَّني أفضلُ منه؟)[1].

إعـلانُ إبليسَ تَـمـرُّدَهُ وعـصـيـانَـهُ، وخـروجَـهُ على مولاه الَّذي لعنَه وأهانَه

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى فسادِ هذا القياسِ الباطلِ الَّذي أوردَهُ إبليسُ، وإلى مشروعيةِ التَّذكيرِ بالأحداثِ الماضيةِ للتَّحذيرِ مِنَ الوقوعِ في الهلاكِ، وإلى ذَمِّ الكِبرِ، وأنَّه مِن شَرِّ الصِّفاتِ، وإلى استحقاقِ إبليسَ الطَّردَ مِن رحمةِ اللّهِ؛ لِتَمرُّدِه وعصيانِه، وخروجِه على طاعةِ خالقِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ على ما قبلَها:

تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بِذِكرِ مُكابرةِ إبليسَ عن مُكابرةِ قومِه

قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۗ﴾، أي: واذكرْ إذ قُلنا للملائكةِ، والمقصودُ من هذا العَطفِ: تذكيرُ النَّبيِّ ﷺ بما لَقيَ الأنبياءُ قبلَه مِن مُعاندةِ الأعداءِ والحَسَدَةِ مِن عهد آدمَ، حين حَسَدَهُ إبليسُ على فضلِه، وأنَّهم لا يَعْدَمونَ معَ ذلك مُعترِفينَ بفضلِهم، وهُم خيْرةُ زمانِهم، كما كانَتِ الملائكةُ نحوَ آدمَ عليه السلام، وأنَّ كِلا الفَريقَين في كُلِّ عصرٍ يمُتُّ إلى أحدِ الفَريقين الَّذي في عهد آدمَ، فَلِفَريقِ الملائكةِ المؤمنون، ولِفَريقِ الشَّيطانِ الكافرون، كما أومَأَ إليه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾.

ومِن أغراضِ ذلك العطفِ تسليةُ النَّبيِّ ﷺ، فأمَرَ اللّهُ نبيَّهُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 653، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 286، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 93.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 461، ومَجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/ 778، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 211.

بأن يَذكرَ ذلك مَوعظةً للنّاس بحال الفَريقَين؛ ليَنظرَ العاقلُ أينَ يَضعُ نفسَهُ[1].

بلاغةُ الحَذْفِ في قوله: ﴿وَإِذْ﴾:

التَّذكيرُ بأوَّل عصيانٍ، مُشابهةً لحال المُشركين في كلِّ زمانٍ

حَذفَ النَّظْمُ القرآنيُّ الفعلَ (اُذكُرْ) عاملَ النَّصبِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والتَّقدير: (واذكرْ ما وقَعَ مِنَ الطُّغيان مع رؤية الآياتِ في أوَّل هذا الكونِ، مِن إبليسَ الَّذي هو مِن أعلمِ الخلقِ بآيات اللّهِ وعَظَمته[2]، حين أَمرَه ربُّه بالسُّجود له، فعصاهُ، وأبى السُّجودَ له حَسدًا واستِكبارًا)[3]، ففي الحَذْفِ تذكيرٌ لِما جَرى منه تعالى مِنَ الأمر، ومِنَ الملائكةِ مِنَ الامتثالِ والطّاعةِ، ومِن إبليسَ مِنَ العصيانِ والاستِكبارِ[4]، بعد ذِكْرِ تمادي هؤلاء المُشركين في غيِّهم وارتدادِهم، عُتوًّا على ربِّهم بتخويفِه إيّاهم.

مُتعلَّقُ الظَّرف ﴿وَإِذْ﴾ ودلالته:

الإشارةُ إلى وقت الأمرِ، وما كان فيه مِنَ الأحداث

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، أي: (اذكرْ يا محمّد ﷺ وقتَ قولِنا للملائكة: اسجدوا لآدمَ)[5]، ولكلٍّ مُتلَقٍّ أن يضعَ في ذاكرته هذا المَشهدَ مِن أمر الملائكةِ بالسُّجود لآدمَ، وامتناعِ إبليسَ، وقد تقدَّم ذِكرُه في مَواضِعَ عديدةٍ، تحدَّثَت عن خَلقِ آدمَ وأمرِ السُّجودِ[6]، حيثُ ذُكِرَت هذه القِصَّةُ في القرآن سبعَ مرّاتٍ بأشكالٍ مُختلفةٍ، وصورٍ مُتباينةٍ تتناسَبُ معَ الغَرضِ العامِّ في السّورة، والغَرضِ الخاصِّ المُناسِبِ للسّابق واللّاحق مِنَ الآيات[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 462.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 80.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 179.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 469.
(7) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 383.

دلالةُ التَّعبيرِ بنون العَظَمةِ في قوله: ﴿قُلْنَا﴾:

بيانُ عَظَمةِ القَولِ الصّادرِ مِنَ الرَّبِّ العظيم

أسند القَولُ إلى نون العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾؛ لأنَّه مَقامٌ يُناسِبُ العَظَمَةَ؛ إذِ السُّجودُ للتَّعظيم، فلمّا أَمرَ به لغيرِه؛ أشارَ إلى كِبريائِهِ وعظَمَتِهِ في ذاتِهِ، وفيه إشارةٌ إلى زيادة المَهابةِ وإظهارِ الجلالةِ تناسُبًا مع أمر السّجودِ.

وذَكَرَ الله تعالى أَمرَه للملائكةِ بالسُّجود مُضيفًا الأمرَ إلى ذاته العَليَّة؛ بيانًا لمركز آدمَ، والله تعالى بذاته العَليَّة وجَّهَ الأمرَ إلى الملائكة بالسُّجود[1].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

بيانُ عُلوِّ مكانةِ الملائكةِ، ودَفعُ توهُّمِ التَّقليلِ مِن شأنهم

دلَّ التَّعبيرُ بالملائكة على عُلوِّ شأنِهم ورِفْعَةِ مَقامِهم، ودفعًا لأيِّ توهُّم قد يَرِدُ في الخاطر مِن تقليل شأنِ الملائكةِ في مَوقفِها مع آدمَ، لمّا قالَ الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]؛ فكان التّعبيرُ بذِكْر المَلائكةِ مُظهِرًا دَفْعًا لهذا التَّوهُّم.

دلالةُ فعلِ الأمر ﴿ٱسْجُدُواْ﴾:

الإشارةُ إلى عظيم شأنِ امتثالِ الأمرِ الإلهيِّ الأعلى

جاءَ فعلُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ دالًّا على الوجوب؛ تكريمًا لآدمَ عليه السلام، والسُّجود وإن عُلِّقَ بآدمَ عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿لِأَدَمَ﴾، فهو لله في حقيقة الأمر؛ لأنَّ المَقصودَ هو امتثالُ الأمر، وهذا يُغنينا عن صَرف السُّجودِ إلى معنًى آخَر يُخالفُ الظّاهرَ[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ اللّام في شِبه الجملة ﴿لِأَدَمَ﴾:

عُلوُّ منزلَتِه ورِفعَةُ مكانتِه عند الله تعالى

تعديةُ السُّجودِ في قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ باللّام دون (إلى) دالٌّ على أنَّهم كُلِّفوا بالسُّجود لذاته، وهو أصلُ دلالة لام التَّعليلِ إذا عُلِّقَ بمادَّة السُّجودِ؛ فليس هناكَ أعظمُ تكريمًا للإنسان

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218.

بأصلِه وجِنسِه مِن أمر الله تعالى ملائكتَهُ بالسُّجود لآدمَ ﷺ؛ ليَعْلَمَ البَشرُ عُلوَّ منزلتِهم، ورِفعةَ مكانتِهم عند الله، فيتجاوبوا معَ هذا التَّكريم، ويكونوا على مستوى حُسنِ الظَّنِّ بهم، والعملِ بما يُرضي اللّهَ مِن أفعالهم وأقوالهم، وقد تَكَرَّرَ الإخبارُ بهذا الأمر الإلهيِّ في بَدْء الخَليقةِ في القرآن سَبعَ مرّاتٍ؛ للتَّذكير والعظة[1].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

بيانُ سُرعةِ امتثالِ الملائكةِ لأمر الله تعالى

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ عاطِفَةٌ للتَّعقيب على ﴿قُلْنَا﴾، والفاءُ تدُلُّ على التَّرتيب والتَّعقيب، ففي قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى مُسارعةِ الملائكة إلى امتثال أمر اللّهِ تعالى لَهُم بالسُّجود، فَسُجودُهم كان في أعقاب أمر الله تعالى لهم مباشرةً، بدون تأخيرٍ أو تسويفٍ[2]، وفي بيان سُرعة الامتثال تعريضٌ بالإشارة إلى عاقبة أولئك الّذين عاندوا الحَقَّ، واقترحوا الآياتِ، وكذَّبوا الرَّسولَ ﷺ؛ فإنَّهم داخلون في الذُّريَّة الَّذين احتنكَهُم إبليسُ واتَّبعوه اتِّباعَ الظِّلِّ لذَويه دُخولًا أوَّليًّا، ومُشاركون له في العِناد أتمَّ مُشاركة[3]، وفيه إشارةٌ إلى مبادرة الملائكةِ لتعظيم آدمَ ﷺ بما له مِن حَقٍّ عليهم في تعليمِهم الأسماءَ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: 33]؛ فعلَّمَهم ما لم يَعلَموه مِنَ الأسماء.

نوعُ الاستثناء ومعناه في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾:

بيانُ أنَّ إبليسَ ليس مِنَ الملائكة، في الأصل ولا في التَّصرُّف

الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ على الصَّحيح[4]؛ لأنَّ إبليسَ ليس مِنَ الملائكةِ، بدليل قولِ الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]؛ ولأنَّه مَخلوقٌ مِن

(1) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 326، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 386.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 103، وملا حويش، بيان المعاني: 2/ 525.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 71.

نارٍ، والملائكة مخلوقون مِن نورٍ، وأمّا دخولُهُ في الأمر؛ فلأنَّه قد أُمِرَ بالسُّجود معهم، فغُلِّبوا عليه تغليبَ الرِّجالِ على المَرأة، في قول القائلِ: خرجوا إلّا فلانة[1]، أو لأنَّه لمّا كان يعملُ بعمل الملائكةِ في الظّاهر؛ كان الأمرُ شاملًا له.

وعلى كلٍّ؛ فهو مأمورٌ بالسُّجود قَطعًا، بدليل قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12].

سِرُّ إيثارِ لفظ ﴿إِبْلِيسَ﴾ دونَ الشَّيطان:

وضْفُ الشَّيطان يُطلَقُ على كلِّ مَن تَعَدَّى أذاه إلى غيره

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿إِبْلِيسَ﴾ في سياق الامتناعِ عنِ السُّجود في المَواضِعِ السَّبعةِ الواردةِ في القرآن الكريم، بدءًا مِن سورة البقرة: [الآية: 34]، وسورةِ الأعراف: [الآية: 11]، والحِجر: [الآية: 31]، والإسراء: [الآية: 61]، والكهف: [الآية: 50]، وطه: [الآية: 116]، وسورة ص [الآية: 74]، ولم يستعملْ لفظَ (الشّيطان)؛ لوجود فَرْقٍ بينَهما، فإبليسُ في مَواطِنِ السُّجودِ لم يَتعدَّ أذاه إلى غيرِهِ، بل اقتصرَ على نفسِه، وكان العِقابُ له باللَّعنِ والطَّردِ إلى يوم القيامة؛ لأنَّ أذاه قاصِرٌ عليه، لكن لمّا تعدَّى الأذى منه إلى آدمَ وزوجِه بإغوائِهما مِنَ الأكلِ مِنَ الشَّجرة، وكانَتِ النَّتيجةُ خروجَهما مِنَ الجنَّة؛ عبَّرَ القرآنُ عن ذلك الفعل بوصف الشَّيطانِ، فقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [البقرة: 36]، ولم يقُلْ: (فأزلَّهُما إبليسُ)، ولذلك فَوصْفُ الشَّيطانِ يُطلَقُ على كلِّ مَن تعدَّى أذاه إلى غيرِهِ مِنَ الإنس أو الجنِّ.

دلالةُ فصل قوله: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ﴾:

عـدمُ سجـودِ إبليسَ عصيانٌ لأمـر اللـه، ناشِئٌ عن جَهْله وغُروره

فُصِلَت جملةُ: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ استثناءَ إبليسَ مِن حُكمِ السُّجود لم يُفِدْ أكثرَ مِن عدمِ السُّجود، وهذا يُثيرُ في نفس السّامعِ أن يسألَ عن سبب التَّخلُّفِ عن

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 157.

هذا الحُكم منه، فيُجابُ بما صَدَرَ منه حينَ الاتِّصافِ بعَدمِ السُّجودِ أنَّه عِصيانٌ لأمر اللهِ، ناشِئٌ عن جَهْلِه وغُرورِه[1].

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾:

إفـادةُ النَّـفي، وامتناعُ سجودِ إبـليـسَ لآدمَ؛ اعتراضٌ على أمر الله

الاستفهامُ في قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الوقوعِ، أي: النَّفي، أي: لم أكُنْ لأفعلَ[2]، مُعترِضًا على ربِّه، كما قال سبحانَه عنه في آيةٍ أُخرى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 76][3]، وتتجلّى في هذا الاستفهام بلاغةُ التَّعبيرِ بالكناية في قوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ كنايةً عنِ الامتناع الَّتي أوثَرَت؛ لِما تنطوي عليه من بيان كبريائه[4].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿لِمَنْ﴾ وصلتِه:

احـتـقـارُ إبليسَ لآدمَ، وانتقاصُه لأصله الطّينيِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالموصول في هذا المَوضِعِ في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ﴾ مِن جواب إبليسَ على سبيل الاحتقارِ لآدمَ ﷺ، والانتقاص مِن قَدْرِه وأَصْلِه الَّذي خُلِقَ منه، فاعترضَ على ربِّه بتفضيل آدمَ ﷺ، وأبى أن يَسجدَ له افتخارًا عليه واحتقارًا له[5]؛ والمعنى: (أأَسجد، وأنا العظيمُ الكبيرُ لهذا الضَّعيف الَّذي خلقتَهُ مِنَ الطّين؟ فكيف يَصحُّ للعالي أن يَسجدَ للدّاني!).

وجهُ الإيجازِ بالحذف في جملة: ﴿خَلَقْتَ﴾:

بـيـانُ اعـتـراض إبـلـيـسَ على حكمة اللهِ مِن خَلْقِه

في قوله: ﴿خَلَقْتَ﴾ إيجازٌ بالحذف، حيثُ حذَفَ مفعولَ ﴿خَلَقْتَ﴾، والأصلُ: (خَلَقْتَهُ[6] مِنَ الطّين، وأنا مَخلوقٌ مِنَ النّار)، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]، فَكَفَرَ بِرَدِّ أمرِ اللهِ عليه، حيثُ نسبَه إلى الجَور

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 386.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 36.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 85.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/ 218.

بتخيُّله أنَّه أفضلُ مِن آدمَ؛ لأنَّه مَخلوقٌ مِن نارٍ، وأنَّ النّارَ الَّتي هي أصلُهُ أكرمُ مِنَ الطّين الَّذي هو أصلُ آدمَ، وقد فاتَه أنَّ الطّينَ أنفعُ مِنَ النّار، ولَئِن سُلِّمَ غيرُ هذا؛ فالأجسامُ كُلُّها مِن جنسٍ واحدٍ، واللّه هو الَّذي أوجدَها مِنَ العدم، ويُفَضِّلُ بعضَها على بعضٍ بما يُحْدِثُ فيها[1].

دلالةُ التَّقييد بالحال ﴿طِينًا﴾:

الإيماءُ لعِلَّة الإنكارِ المدلول عليه بقول (أأسْجُدُ)

قولُه تعالى: ﴿طِينًا﴾ حالٌ مِن اسم الموصول[2]، أي: الَّذي خلقتَهُ في حال كونِه طينًا، فيُفيد معنى: أنَّك خلقتَهُ مِنَ الطّين، وإنَّما جعلَ جنسَ الطِّين حالًا منه؛ للإشارة إلى غلبة العنصرِ التُّرابيِّ عليه؛ لأنَّ ذلك أشَدُّ في تحقيرِهِ في نظر إبليسَ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿طِينًا﴾:

بيانُ مَظهرٍ من مظاهر استكبارِ إبليسَ على السُّجود لآدمَ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بقوله: ﴿طِينًا﴾؛ إيماءً لعلَّة الإنكارِ المدلول عليه بقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، فقولُه هذا مَبنيٌّ على كون أصلِه أشرفَ مِن أصل آدمَ ﷺ، كأنَّه قال: (كيفَ أسجدُ له، وسجودُ الأشرف للأدنى غيرُ مَعقول)[4].

فاعتقدَ إبليسُ - لعنَه اللّه - أنَّ النّارَ أكرمُ أصلًا مِنَ الطّين، وأنَّه أكرمُ ممَّن خُلِقَ مِنَ الطّين، وذهبَ عليه بجهلِه أنَّ الجواهرَ كُلَّها مِن جنسٍ واحدٍ، وأنَّ اللّه ﷻ يصرفُها بالإعراض كيف شاءَ، مع كَرَم جوهرِ الطّينِ بكثرة ما فيه مِنَ المَنافِع[5].

ويجوزُ أن يكونَ هذا القولُ صدرَ مِن إبليسَ اعتقادًا منه أنَّ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 69.
(2) جازَ وقوعُ الحال جامدةً لدلالتها على الأصالة، كأنَّه قال: مُتأصِّلًا من طين، يُنظر: الخرّاط، المُجتبى من مُشكل إعراب القرآن: 2/ 621.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 150.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/ 454، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 402.
(5) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن: 3/ 115.

آدمَ إلى هذه اللَّحظة كان طينًا، ولم يُخلَقْ بَعْدُ، وكأنَّه يُنكرُ أنَّ اللّهَ سوّاه، وعلى كلٍّ فهذا مَظهرٌ مِن مظاهرِ استكبارِ إبليسَ على السُّجود لآدمَ[1].

وممّا يُذكَرُ في سِرِّ التَّعبير أيضًا أن يُقالَ: إنَّ إبليسَ قال ذلك باعتبار تَغيُّرِ مَراحلِ الخَلْقِ لآدمَ عليه السلام؛ فَذَكَرَ مرحلةً مِن مَراحلِ هذا الخَلقِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّيطان وإبليس:

فرَّقَ الاستعمالُ القرآنيُّ بينهما، مِن حيثُ الاشتقاقُ والدَّلالةُ

يظنُّ البعضُ أنَّه لا يوجدُ فرقٌ في الاستعمال بينَ الشَّيطانِ وإبليسَ، لكن بالتَّتبُّعِ للاستعمال القرآنيِّ وُجِدَ فرقٌ بينهما:

أوَّلًا: مِن ناحية الاشتقاق، فإبليسُ مُشتَقٌّ مِنَ الإبلاس، وهو الإبعادُ مِنَ الخيرِ، أو اليأسُ مِن رحمةِ اللّهِ، وأصلُ (بلس): يَدُلُّ على اليأسِ[2]، أمّا الشَّيطانُ؛ فهو مُشتقٌّ مِن شَيَطَ، أو مِن شَطَنَ، أي: بَعُدَ عن رحمة اللّهِ تعالى.

وثانيًا: مِن ناحية الدَّلالة، فالقرآنُ الكريمُ استعملَ لفظَ إبليسَ في امتناعِه عنِ السُّجود لآدمَ، حيثُ وردَت هذه القصَّةُ في القرآن الكريم في مَواضِعَ مُتكاثرةٍ، وسببُ ذلك أنَّ شَرَّهُ مَقصورٌ على نفسه، ولم يتعدَّ لغيرِه؛ بدليل عقابِ اللّهِ له باللَّعن والطَّرد مِن رحمة اللّهِ، والآياتُ في هذا ظاهرةٌ واضحةٌ لا تحتاجُ إلى تمثيلٍ، أمّا عندما تعدَّى أذاهُ إلى غيرِه؛ فسمّاه القرآنُ شيطانًا، قال تعالى في فعل إغوائِه لآدمَ وزوجِه وذرّيَّتِه من بعدِه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36]، وقال في سورة الأعراف: ﴿فَوَسْوَسَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4414.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلس)، والواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن: 2/ 367.

لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]، وقال في حَقِّ ذرّيَّة بني آدمَ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وعلى هذا، فالشَّيطانُ وصْفٌ يقعُ على كلِّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنس، بخلاف لفظ إبليسَ فهو عَلَمٌ على هذا المخلوق مِنَ الجنِّ الَّذي تمرَّدَ على السُّجود لآدمَ، وردَّ أمرَ اللهِ عليه؛ لذا فالشَّيطانُ أعمُّ مِن إبليسَ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»